الموضوع الثانى

موقف الدولة العثمانية والقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس

فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى استمرت قواعد المسلمين فى الأندلس تتساقط تباعا فى يد أسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة بمدنها وثغورها القلائل .

وبعد أن اتحدت قشتالة وأرجوان على يدى فرديناند وايزابيلا اعتزمت أسبانيا النصرانية توجيه ضربتها الحاسمة لما تبقى للإسلام فى الأندلس فتدفقت جيوشها على مملكة غرناطة التى كانت رغم صغرها وضعفها تمثل صولة الإسلام فى أسبانيا ونواة التحرك الإسلامى تجاه أوربا والذى بدأت طلائعه فى الشرق على يد الأتراك العثمانيين بعد فتحهم للقسطنطينية . وقد استغلت أسبانيا النصرانية فى ذلك الخلاف الداخلى الذى دب بين الأسر الحاكمة فى غرناطة واضطرام المنافسة على السلطة ، وغلبة نفوذ النساء على الحكام ، وانتشار الخطوب والفتن والحروب الأهلية داخلها(١) .

وفى تلك الآونة العصيبة اتجهت أبصار أمراء وأهل الأندلس إلى القوى الإسلامية المعاصرة لهم فى المشرق والمغرب معا يناشدونها النجدة والغوث إزاء الخطر المحدق بهم وكانت رسائلهم ووفودهم تصل تباعا إلى الآستانة والقاهرة ومراكش خاصة وأن هذه القوى الإسلامية كان لها مكانتها واسهاماتها فى خدمة الإسلام والمسلمين فالدولة العثمانية حقق الله على يديها فتح القسطنطينية ، وراحت قواتها تتابع فتوحاتها فى أوربا وآسيا وتنفذ بلواء الإسلام إلى أمم النصرانية فأخضعت ممالك الأفلاق والصرب والبوسنة والهرسك وألبانيا وغيرها ، وكانت بمثابة القوى القادرة القاهرة التى تفتح الممالك المسيحية باسم الإسلام ، وبوسعها أن تدفع الغائلة عن المسلمين فى أى مكان مما جعل أعناق أهل الأندلس تشرئب إليها لانقاذهم من محنتهم وليحتفظوا بالأندلس للمسلمين .

١- للتفاصيل انظر محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين جـ٤ ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ص ١٦٢ وما بعدها .

ركبت هناك دولة المماليك الشراكسة فى مصر والشام والجزيرة العربية الذين تحقق على أيديهم هزيمة المغول واجلاء الصليبيين من آخر معاقلهم بالشام ، وكانت أوربا تخشاهم ، وتعمل لسلاطينهم ألف حساب خاصة وأنهم كانوا يتحكمون فى البقاع النصرانية المقدسة وبين رعاياهم العديد من النصارى . وكان هناك حكام المغرب الأقصى الذين كانوا يتمسكون بفكرة الجهاد ، وبأهمية المحافظة على ما تبقى للمسلمين من ممتلكات فى الأندلس ، ويرغبون فى وقف أطماع الممالك المسيحية النامية فى شبه جزيرة إيبريا ، وقد تمثل ذلك فى الحملات المتتالية للمرابطين والموحدين ثم المرينيين والتى كان من أهمها تياه المرابطين بمساندة ملوك الطوائف ضد جيوش أسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة ١٠٨٦م وقيام السلطان المغربى يعقوب بن عبد الحق المرينى بارسال جيش جرار فى عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م لمساندة أهل الأندلس فى الانتصار على نصارى أسبانيا .

ونظرا لأن أهل غرناطة وحكامها شعروا بعدم قدرتهم وحدهم على الثبات أمام أعدائهم فقد استغاثوا بهذه القوى ، وطلبوا منها العمل على انقاذهم من الخطر المحدق بهم والاحتفاظ بغرناطة للمسلمين ولكن ذلك لم يتحقق مما يدفعنا إلى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تقاعس هذه القوى عن نصرة أخوانهم فى الدين والملة على الرغم من أن صدى الأحداث المؤسفة التى وقعت للمسلمين فى الأندلس كانت تملأ بلاط حكام القاهرة والآستانة وغيرها ، وتثير فيهم الاهتمام والعطف(١) .

وحتى تتضح لنا الأمور سنعرض لأحوال كل قوة من هذه القوى على حدة ، والأسباب التى باعدت بينها وبين مساندة أهل الأندلس .

أولا : الدولة العثمانية :

كان من الطبيعى أن يتجه أهل الأندلس إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكريا خلال صراعهم من أجل البقاء والمحافظة على الدين والملة فأرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م سفارة إلى استانبول ملفتين نظر السلطان محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لانقاذهم(٢) ولكنه كان مشغولا عنهم ولم يقدم لهم النجدة . وتكررت مناشدتهم بعد وفاة هذا السلطان لابنه

١- عنان:مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ص١٣٨ .

٢- عبد الجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى . المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد الثالث يناير ١٩٧٥ ص ٣٨ .

بايزيد فأرسل أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة رسولا إليه يلتمس منه النجدة لانقاذ بلاده ، ونصرته ضد ملوك النصارى(١) كما أرسل إليه أحد شعراء غرناطة بقصيدة يصور فيها مأساة المسلمين ويستنجده لانقاذهم والدفاع عن حرمات المسلمين(٢) .

وتختلف الآراء حول مدى استجابة السلطان بايزيد لهذه الاستغاثة . فهناك من يقول إن الدولة العثمانية استجابت لنداء أهل الأندلس ، وأرسلت أسطولا إلى المياه الأسبانية لمساعدة حاكم غرناطة المحتضر(٣) . وهناك من يقول إن مشاكل السلطان الداخلية قد حالت دون ذلك خاصة وأن نزاعه مع أخيه جم على العرش وما أثاره ذلك النزاع من مشكلات مع البابوية وبعض الدول الأوربية ثم التحالفات الصليبية ضد الدولة قد جعلته يصم أذنيه عن تقديم النجدة لأهل الأندلس .

والواقع ان إرسال أسطول عثمانى لمساندة أهل الأندلس فى محنتهم لم يثبت تاريخيا وان كان هناك بعض المصادر الثانوية التى أشارت إلى ذلك(٤) . حقيقة أن الدولة العثمانية كانت تمتلك جيشا يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الجيش كان قوامه القوات البرية وليست البحرية . يضاف إلى ذلك أن هزائم الدولة العثمانية البحرية كانت تجعلها تحجم عن المخاطرة(٥) وتساند أهل الأندلس المحاصرين بالشاطىء ، والذين كانوا فى حاجة إلى قوة بحرية قوية وإلى جانب ذلك فان السلطان بايزيد كان ميالا للسلم أكثر منه للحرب ، وفى عهده عموما لم تحدث فتوحات تذكر .

ويميل بعض الباحثين إلى تبرئة ساحة الدولة العثمانية بالنسبة لسقوط الأندلس بحجة أنها لم تكن تستطيع أن ترسل جيوشها إلى هناك بسهولة بينما يرى البعض الآخر أن العثمانيين قصروا فى نصرة اخوانهم فى الأندلس ، ولم يسارعوا إلى نجدتهم ودويلاتهم المتهرئة تتساقط الواحدة تلو الأخرى .

١- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ص ٩٠٣ .

٢- شهاب الدين المقرى التلمسانى: أزهار الرياض فى أخبار عياض - تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ١ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ص ١٠٩-١١٥ .

٣- ستانلى لين بول : الدولة الإسلامية ، القسم الأول - ترجمة محمد صبحى فرزات ص٦٥ .

٤- ذكر ستانلى لين بول ان السلطان العثمانى ساق أسطولا لنجدة أهل الأندلس بقيادة رجلا من حاشيته اسمه جمال ولكننا لم نجد فى المصادر التاريخية ما يشير إلى هذا الأسطول أو إلى التنويه بنجدة قدمها السلطان لمسلمى الأندلس .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٨٩٦-٨٩٨ .

والواقع ان الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كانت مشغلة فى حروب متعددة مع النمساويين والألمان والمجريين والألبان والصرب والجبل الأسود واليونان وإمارتى جنوة ونابلى وغيرها ، وكان على آل عثمان إذا أرادوا إنقاذ الأندلس القيام بمغامرة غير مأمونة العواقب حيث يتركون الجبهة الأوربية ، ومنطقة الأناضول مكشوفة ويذهبون للحرب على مسافة هائلة دون استعدادات بحرية مجدية لنقل الجنود من أقصى شرق أوربا إلى أقصى جنوبها الغربى شبه جزيرة إيبريا ليحاربوا حربا وسط اقليمين كبيرين هما أسبانيا والبرتغال المدعومين من كل القوى الصليبية فى الشمال[١] .

وهكذا يتضح أن الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية والخارجية أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لانقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية ، وبقى مسلمو الأندلس يواجهون ضراوة الموقف وحدهم .

ثانيا : دولة المماليك :

اتجه سلاطين غرناطة وأهلها إلى مصر يلتمسون معونتها أمام الخطر الصليبى المحدق ببلادهم فأرسل السلطان محمد بن يوسف بن نصر رسالة[٢] إلى السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون[٣] يوضح له فيها الأحوال التى آلت إليها الأندلس وما يضمره النصارى من شر ، ويناشده المساعدة لانقاذ الإسلام بقوله "والدين غريب والغريب يحن إلى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله[٤] .

ويبدو أن المشاكل التى اقترن بها عصر السلطان أحمد قد حالت بينه وبين بسط يد المساعدة للأندلس ، خاصة وأن سلطنته لم تستمر سوى شهرين واثنى عشر يوما[٥]. ونتيجة لذلك تكرر طلب النجدات من مصر فأرسل السلطان عبد الله بن محمد بن

١- محمود الشاذلى : المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٥٠-٥١ .

٢- عن فحوى هذه الرسالة انظر: المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ١ - تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٣٢١-٣٢٦ .

٣- أكبر أبناء الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الحكم أواخر عام ٧٤٢هـ .

٤- نفح الطيب ص ٣٢٦ .

٥- انظر محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى جـ١ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ص ٤٣ .

نصر[1] حاكم غرناطة إلى الظاهر جقمق العلائى[2] سلطان مصر برسالة عام ٨٤٤هـ يلتمس منه النجدة والعون ضد "الإفرنج المجاورين" والتى يمكن عن طريقها أن يتقوى بها المسلمون فى الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحيط بهم[3] وكان رد السلطان المملوكى على هذه الرسالة أن مصر بعيدة عن بلاد الأندلس ، ومن الصعب تجهيز قوات عسكرية لمساندتها لحيلولة البحر والافتقار إلى المراكب الكثيرة ووعد بمخاطبة العثمانيين[4] فى مساعدة غرناطة ، وكان رد السفير على ذلك "يا مولانا السلطان ! نصركم الله أنت كبير الملوك والسلاطين ، وخديم الحرمين الشريفين ولم نجىء إلا إلى حضرتكم وحاشا أن تردنا خائبين" وأخيرا وافق جقمق على تقديم معونات مالية ومعدات عسكرية إلى غرناطة[5] . ونتيجة لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة وقيام ايزابيلا بطلب الجزية من أميرها فى عام ١٤٧٦م واحتقار الأمير لهذا الطلب بقوله "إن دار الضرب عندى لم تعد تضرب عملة ذهبية وإنما تضرب الفولاذ" واستئناف الحرب بين الطرفين وتقدم جيوش فرديناند وايزابيلا اضطر أمير غرناطة إلى إرسال بعض مبعوثيه برئاسة الفقيه الأندلسى أبى على بن على بن محمد الأزرق إلى السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى[6] فى ذى القعدة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م يستنجد به ضد المسيحيين ويستنهض عزائمه لمساندة أهل الأندلس[7] فى قتالهم للمحاصرين لبلاده الذين أشرفوا على أخذ غرناطة[8] .

١- تذكر بعض المصادر والنصوص الأجنبية أن سلطان غرناطة فى ذلك الوقت كان محمد بن يوسف الأيسر ، ولكننا أخذنا برأى المقريزى .

٢- تولى سلطنة مصر من عام ٨٤٢-٨٥٧هـ (١٤٣٨-١٤٥٣م) . للتفاصيل انظر السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع حـ٣ ص٧١-٧٤ ، وأيضا ابراهيم طرخان مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٠م ص ١٤٦ .

٣- لتفاصيل ذلك انظر د. عبد العزيز الأهوانى: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (سنة ٨٤٤) مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر جـ١ مايو ١٩٥٤ ص ٩٥ .

٤- يقصد مخاطبة السلطان مراد بن محمد ، وكانت الصلة بينها طيبة .

٥- د. ابراهيم طرخان : المرجع السابق ص ١٤٦ .

٦- وثب إلى عرش مصر فى عام ٨٧٢هـ ، وكان عهده بداية النزاع بين العثمانيين والمماليك .

٧- أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م ص٤٦٨ .

٨- محمد بن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٢، القاهرة ، مطبعة بولاق١٣١١هـ ص٢٤٦ .

ولما لم يكن فى مقدرة السلطان المملوكى القيام بعمل عسكرى لمساندة أهل الأندلس خاصة وأنه كان يستعد لمنازلة السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، هذا إلى جانب بعد المسافة بينه وبينهم وصعوبة المواصلة ، واحتياج الأمر لمقدرة بحرية ضخمة لم يستطع إليها سبيلا فقد حاول انقاذ الموقف عن طريق الضغوط السياسية فأرسل إلى كبير قساوسة كنيسة القيامة بالقدس يذكره بما يتمتع به نصارى الشرق من حريات وأمان على أنفسهم وعقائدهم ويطالبه بإرسال مكاتبة على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك نابلى(١) ، وإلى بابا روما(٢) للتدخل لدى ملك قشتالة وأرجوان بأن يحل عن أهل غرناطة ويرحل عنهم(٣) ولا يتعرض لهم ويرد إليهم ما استولى عليه من أراضيهم ، وإلا فانه سيضطر إزاء هذا العدوان أن يتبع نحو نصارى الشرق سياسة القصاص ، ويجلب عليهم المتاعب، ويقوم بالتنكيل بهم ويمنعهم من دخول كنيسة القيامة ويقبض على أعيانهم ويهدم الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة(٤) .

ومع أن كبير قساوسة كنيسة القيامة استجاب لطلب السلطان المملوكى ، وكاتب ملك نابلى فان هذه المحاولة لم تفد بشىء .

وفى محاولة أخرى من السلطان المملوكى أمر بارسال وفد من رعاياه النصارى(٥) إلى روما ونابلى ، وإلى الملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا يعاتبهم على ما يحدث لأبناء دينه فى غرناطة ، ويهددهم باضطهاد نصارى الشرق إن لم يكف عن مهاجمة غرناطة ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا(٦) وسقطت غرناطة فى صفر ٨٩٧هـ/١٤٩١م وانتهت بذلك دولة الإسلام فى أسبانيا . ومع ذلك فان وساطة المماليك وتوعداتهم لم تتوقف عند سقوط غرناطة فقد أرسل السلطان المملوكى وفدا إلى أسبانيا فى عام ١٥٠٠م للتعرف على إذا ما كان المسلمون الأندلسيون قد أجبروا على الارتداد عن

١- هو فرديناند الأول .

٢- هو البابا انوصان الثامن .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ص ٢٤٦ .

٤- Prescott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London 1895 P. 278 .

٥- تكون هذا الوفد من راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وقد وصل هذا الوفد إلى أسبانيا فى عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م أى قبيل سقوط غرناطة . انظر عنان : نهاية الأندلس ص١٦٧-١٦٨ وأيضا Prescott: op. cit P. 278.

٦- لم ينفذ السلطان المملوكى وعيده باتخاذ اجراءات عنيفة ضد النصارى لانشغاله عندئذ بصد غارات بايزيد الثانى على حدود مصر الشمالية ، واضطراب أحوال مصر خلال هذه الفترة .

دينهم واعتناق النصرانية ، وعن مدى صحة ما تردد عن تحويل المساجد إلى كنائس ، وليخبر الملك فرديناند والملكة ايزابيلا بأن السلطان المملوكى سوف يقابل الاعتداء بمثله، ويثأر للمسلمين باضطهاد النصارى الخاضعين لحكمه(١) . وكان رد فرديناند على ذلك هو محاولة اقناع سلطان مصر بما يلقاه المسلمون فى الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم .

والسؤال المطروح هل كان فى مقدرة مصر القيام بعمل عسكرى لانقاذ أهل الأندلس ؟

الواقع أن بعد المسافة ، وقصور امكانات المماليك الجراكسة البحرية خاصة وأنهم أصحاب خيل وقوتهم برية أكثر من كونها بحرية كان السبب فى التقاعس عن انقاذ الأندلس ، وان كان ما فعله المماليك لا يتعدى قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال المؤثرات الدينية مما أدى إلى ترك الأندلس لمصيرها(٢) .

ثالثا : المغرب الأقصى :

توالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب وحكامها يلتمسون نصرتهم ويطلبون منهم الغوث والنجدة غير أن الأوضاع الداخلية التى كانت عليها بلاد المغرب خلال هذه الفترة ، وانقسامها إلى دويلات عدة تحاول تمزيق بعضها بعضا وازدياد النفوذ الأسبانى البرتغالى على السواحل المغربية كل ذلك جعل من الصعب القيام باجراءات فعالة لنصرة أهل الأندلس(٣) وانقاذهم من المأساة التى تعرضوا لها كما حدث فى الماضى غير مرة(٤) فسقطت غرناطة آخر ما تبقى من بلاد الأندلس للإسلام وطويت صفحة الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة ايبريا .

وبعد هذا العرض لمواقف القوى الإسلامية من الأندلس أثناء محنتها يطرح سؤال نفسه لماذا لم تتآزر القوى الإسلامية وتتفق على خطة موحدة لمساندة أهل الأندلس وانقاذهم من السقوط بعد أن داهم العدو ساحتهم ومد الصليب ذراعيه إليهم على الرغم من أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحضان على ذلك فيقول تعالى "**إن الله يحب الذين**

١- مؤلف مجهول: وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة – ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى ، القاهرة ، دار الهداية ص ١٢-١٣ .

٢- عنان : مصر الإسلامية ص ١٤٣ .

٣- الشناوى : مرجع سابق جـ٢ ص ٩٠٤ .

٤- Irving, Wilegends of the conquest of Spain P.P 220-221 .

يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" ، ويقول الرسول الكريم "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار" و "من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا" .

الواقع أن العلاقات بين القاهرة والآستانة خلال هذه الفترة كان يسودها القطيعة والجفاء خاصة وأن العثمانيين كشفوا مرارا عن نيتهم فى غزو مصر ، مما جعل حكام مصر يقفون منهم موقف الحذر المتأهب ، وينصرفون إلى الاستعداد للتقاتل بدلا من مساندة أهل الأندلس . يضاف إلى ذلك ما كان بين العثمانيين والصفويين فى إيران من صراع وصل مداه إلى حد أن يقوم الشاه إسماعيل الصفوى بطلب المساندة العسكرية من ملوك أوربا الذين حرصوا على توسيع شقة الخلاف بين الدولتين الإسلاميتين فتحالف البرتغاليون مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية كما دخل الشاه إسماعيل الأول فى مراسلات مع الامبراطور شارلكان للتحالف ضد العثمانيين ، يضاف إلى ذلك أن الصراع فى المغرب الأقصى للوصول إلى الحكم والحروب الطاحنة بين الأسر المتنافسة قد حال دون تقديم المساعدات اللازمة لأهل الأندلس .

وهكذا يتسنى أن السبب الرئيسى فى محنة الإسلام بالأندلس نتج عن فرقة المسلمين وتشرذمهم ، والعداء المستحكم بين حكامهم ، ونجاح حكام أوربا فى توسيع شقة الخلاف بين هؤلاء الحكام لدرجة أن استعان بعضهم بالنصارى ضد اخوانهم فى الدين .

وعلى أى حال فقد استوعب العثمانيون الدرس جيدا ، ورفضوا تكرار ما حدث للأندلس فى أى منطقة إسلامية أخرى واستمرت عقدة الشعور بالذنب تلاحقهم حتى واتتهم الفرصة لاستعادة ثقة العالم الإسلامى بهم عندما طلب منهم أهل شمال أفريقية النجدة ضد البرتغاليين والأسبان فقام السلطان سليم الأول بحسم الموقف ، ومساندة المسلمين وتثبيت دعائم الإسلام هناك .